

من التحدي والاستجابة إلى الدولة العالمية قراءة في فلسفة أرنولد توينبي

الدكتور: أمجد أحمد الزعبي

رئيس قسم العلوم الإنسانية

كلية الآداب والفنون

جامعة فيلادلفيا/ الأردن

موبايل:

00962772330111

بريد الكتروني:

dr.amjadzoubi@gmail.com

(مُلخَصُ البَحْث)

شكّلت فلسفة توينبي الحضارية محاولة لرسم خطوط عامة لنشأة الحضارة وانهيارها، إذ عدّ التحدي والاستجابة هو المعيار لهذه النشأة والانهيار، مستخلصاً من هذا المسير نظريته المستقبلية القائمة على بناء الدولة العالمية، والدين العالمي المستند إلى القيم الإنسانية المشتركة. وتكتسب الأسئلة ذاتها التي أثارها توينبي في أعماله راهنية جديدة مع الاهتمام لدراسة هذه النظرية منذ أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي فيما يتعلق بالتواصل والصراع الحضاري، واتجاه العالم نحو إزالة كافة الحواجز بفعل الثورات الجديدة تكنولوجيا وسياسيا واقتصاديا.

تقوم الفرضية الأساسية لهذه الدراسة على أن توينبي استقرأ التاريخ واستنتقه برسم فلسفة مستقبلية أدت فيه تجربته وعمله وتعليمه دوراً في هذا الاستقراء. وغطت الدراسة المحاور التالية:

١. التكوين الفكري لتوينبي.

٢. فلسفة التاريخ.

٣. التحدي والاستجابة ونشأة الحضارة.

٤. انهيار الحضارة والدولة العالمية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة التاريخ، الحضارة، التحدي والاستجابة، الدولة العالمية.

مقدمة:

اختلفت نظرة الإنسان للتاريخ باختلاف العصور لصلتها بالوضع الحضاري وبالتطورات الثقافية والعلمية والفلسفية. فالتاريخ ماضي الإنسان، والمؤرخ يحاول بوسائله بناء صيغة أقرب ما تكون للحادثة التاريخية، والنظرة الصائبة للتاريخ هي النظرة القائمة على الاستقصاء، والتحليل، والربط، والاستنتاج وهو ذات المنهج العلمي، فدلالات دراسة التاريخ بصفتها بعداً علمياً في حقول المعرفة كافة؛ وبذلك تجاوزت اهتمامات التاريخ الجوانب السياسية إلى مختلف جوانب الحياة، فأضحت فلسفة التاريخ بناء تصور للتاريخ العام في بعده الزماني والمكاني، من خلال تركيب الوقائع التاريخية لاستنباط قوانين ووجهات سير المجتمعات البشرية، فالتحليل الفلسفي للتاريخ يتعلق بتشخيص عمل المؤرخ - الفلسفة النقدية - ومحاولة اكتشاف معنى الدلالة في المسيرة التاريخية - الفلسفة التأملية -.

وتقديم التاريخ على أساس أنه دراما لها بداية ونهاية حددتها العناية الإلهية خارج إطار الإنسان، ليصبح (التاريخ) نتاج هذه المشيئة، ولا علاقة للبشر، أو إرادتهم فيه. أما النقد التاريخي فهو لمسيرة بشرية قائم على الفحص، والتحري، وتحرير الكتابة التاريخية من الأسطورة والخرافة والوهم، ليقود ذلك إلى أن حركة التاريخ تأخذ أشكالاً مختلفة ولا تسير بخط مستقيم له بداية ونهاية. فقد نظر أرنولد توينبي إلى التاريخ البشري نظرة شمولية، وحاول أن يستخلص من مسار التاريخ الحضاري قوانين تحكم هذا المسار وبالتالي التنبؤ بالمستقبل، معتمداً منهجاً استقصائياً على أساس الدراسة المقارنة، ووضع نظريات حول نشوء الحضارات، وانهارها، وانحلالها.

أسئلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة للإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما أبرز المؤثرات في فكر أرنولد توينبي؟
٢. هل كان للوظائف التي مارسها دور في تشكله الفكري؟
٣. هل النظريات التي وضعها، أو صاغها قد أثرت في حركة الدراسات التاريخية؟
٤. هل سعى للوصول بفلسفته لصياغة تتعلق بنهاية التاريخ؟
٥. هل آمن بفكرة نهاية التاريخ؟
٦. هل ينتهي التاريخ بالدولة العالمية؟

وبناء عليه تقوم **فرضية الدراسة** على أن توينبي في فلسفته للتاريخ كان متأثراً بالوقائع والأحداث الكبرى التي عايشها: الحربان العالميتان، والحرب الباردة، إلى حد التناقض؛ انتقل فكرياً من (لا أدري) إلى (الإلحاد) إلى (الإيمان) والتبشير بالدولة العالمية، وفيها تتجلى نظرتة التأملية والمثالية. **أما منهجتي** فهي منهجية البحث التاريخي بالاعتماد على المصادر الأولية، ومعالجة قائمة على النقد والتحليل.

أهداف الدراسة:

١. تسعى هذه الدراسة الى الإجابة عن الأسئلة السابقة والتحقق من الفرضية.
٢. تسليط الضوء على نظرية توينبي في تفسير نشوء وانهيار الحضارة التي ما زالت حتى اليوم مثارا للجدل بين الباحثين والدارسين.
٣. يزعم الباحث ان الدراسة تغطي جانباً من جوانب نظرية توينبي غير مطروق تحت نفس العنوان والفرض، وبالتالي تقديم إضافة جديدة في الدراسات العربية متواضعة تساعد الباحثين في الحالة العربية الراهنة في ظل الاضطرابات، وحالة الصراع الداخلي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تأتي مع إعادة أسئلة مطلع القرن العشرين حول نشأة وانهيار الحضارة وفلسفة ذلك كله في إطار النظام العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي: فهل تتواصل الحضارات أم تتصادم وتتصارع؟ هل لدينا نهاية للتاريخ في أوج الصراع الحضاري وبالتالي قيام الدولة العالمية؟. مع مطلع القرن الحالي وأحداث الحادي عشر من سبتمبر وصعود التشدد والتطرف في العالم الإسلامي: القاعدة وبناتها، طرحت من جديد تحديد هوية الغرب والشرق. بروز القوى الاقتصادية والسياسية في آسيا: اليابان والصين والهند والنمور الاسيوية، طرح آفاق جديدة للعلاقات الدولية من خلال منظور حضاري مقارن. بروز التحدي البيئي الجديد في ظل الثورة الصناعية الثالثة واستنزاف كامل لموارد الأرض، طرح أسئلة مسألة مستقبل الأرض. فعودة التواصل والصراع الحضاري صار يتعلق بقضايا: العولمة وسياسات الانفتاح والانغلاق والبيئة والإرهاب.

الدراسات السابقة:

جرت آلاف من الدراسات حول توينبي وأعماله وحياته في جميع لغات العالم، والمكتبة العربية لها نصيبها من ذلك سواء بالترجمة، أو التأليف التي يمكن رصد

جانبا منها في قائمة المصادر والمراجع، لكن جديد هذه الدراسة في موضوعها، وفرضها، ومعالجتها.

أولا. التكوين الفكري لتوينبي

ولد المؤرخ والفيلسوف البريطاني أرنولد جوزف توينبي " Arnold Joseph Toynbee " في لندن في ١٤/نيسان ١٨٨٩م^(١)، وهو ابن عم الاقتصادي الإنجليزي الشهير "أرنولد توينبي"^(٢). نشأ توينبي في أسرة ليبرالية مستقرة تنعم بالرفاه، وتنتمي للطبقة الوسطى العليا، إذ كانت هذه الطبقة تسعى إلى تنشئة أبنائها تنشئة نخبوية ذات طابع أرسقراطي، وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة ونشستر "Winchester". ليلتحق بعدها بكلية باليول في أوكسفورد " Balliol College, Oxford " في تخصص التاريخ القديم "Classic History" ١٩٠٨-١٩١١م بتأثير والدته- كانت تحمل درجة البكالوريوس في التاريخ- التي أسهمت بشكل مباشر في توجهاته الأولى نحو التاريخ، فهو يقول: "إنني مؤرخ لأن أمي كانت مؤرخة ولم يحدث يوما أن شككت أنني سأكون مؤرخا"^(٣).

أتقن توينبي اللغة اليونانية واللاتينية فضلا على اللغات المعاصرة الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، وبعد تخرجه مع مرتبة الشرف عين أستاذا للتاريخ اليوناني فيها، ليتزوج ابنة العالم الإنجليزي المشهور في الدراسات الكلاسيكية جلبرت موراي (Gilbert Murray) - ليبدو وكأن مستقبله قد تأمن من هذا الزواج^(٤). تمكّن توينبي وبمساعدة الأصدقاء ووالدته من تقادي الخدمة العسكرية، فقد كتبت له والدته بهذا الخصوص: "كل شيء ضدك، جسمك الضعيف، افتقارك للروح العالية، والقوة البدنية وكل ما هو ناتج عن القوة المادية". وبتقرير طبي مزور تم إعفاؤه من الخدمة العسكرية^(٥).

العمل الأول الذي مارسه توينبي وبرع فيه هو التدريس في الكلية التي تخرج فيها (١٩١٢-١٩١٥م)، عمل بعدها بقسم الاستخبارات التابع لوزارة الخارجية البريطانية سنة ١٩١٥م (Intelligence Department Of the British F.O)^(٦)، حيث كان في هذه الفترة متحمساً للحرب من أجل الحضارة" فقد كتب سنة ١٩١٤: "كان مفهوما بالطبع أن إطار العمل بالنسبة للنظام العالمي سيكون هو الحضارة الغربية "الحضارات الأخرى قامت وسقطت، جاءت وذهبت، ولكن الغربيين لم يشكوا أبداً أن حضارتهم كانت متينة". إلا أن هذه الأفكار تبددت بفعل نتائج الحرب فقد كتب بعد ذلك: "الوهم الذي كان لدي بأنني المواطن المتميز في

عالم مستقر قد تبدد"^(٧). ففلسفته نتاج تجاربه وتأثير الخارج عليه، ففي كل مرحلة من مراحل حياته نجده ينقلب على ذاته وأفكاره، فمجرى حياته الشخصية وتجربته أدت دورا مهما في تحديد مواقفه. وهو شعور ناتج عن التحولات الكبرى التي عاشتها بريطانيا، والذي تلازم مع الشعور بالقلق والخوف من المستقبل^(٨). فكانت نتائج الحرب الأولى مدمرة؛ فمعظم رفاقه في الجامعة ذهبوا ضحيتها، وتحطم حلم جيل كامل، وأضحت الحرب لا تستحق الاحترام بل هي جريمة. وزاد شعوره بالانهزام من الحرب لأنه تحايل وتهرب من الخدمة العسكرية بتقرير طبي مزور، ليتجه اتجاها اقترب فيه من جماعة بلاومزيري (Bloomsbury) التي كانت تدعو إلى أسلوب جديد راديكالي في السياسة بوهيمي في الحياة، إباحي في الجنس، وسلامي لدرجة مفرطة، وحماسة شديدة للفكر الاشتراكي، والعالمي السلمي^(٩).

كان توينبي نتاج تراث الثقافة الإنجليزية؛ تراث الليبرالية في أواخر القرن التاسع عشر، فهو ينتمي لجيل من المثقفين المتحررين من الوهم، والذي سيطر على مسرح الحياة العامة بين الحريين العالميتين، الذين نظروا إلى الإمبراطورية البريطانية على اعتبارها ممثلة للقيم الكاذبة للعصر الفيكتوري "المتعجرف". وكان هؤلاء يتجهون نحو بديل آخر انبثق من الليبرالية الجديدة، وبدلاً من فكرة تلاشي وتحلل الغرب فقد اتجهوا نحو عملية تجديد له كمجتمع قيم مشتركة، أو ما يطلق عليه بلغة التنوير القيم "المهذبة"^(١٠).

كان توينبي عضواً في الوفد البريطاني لمؤتمر السلام سنة ١٩١٩م - وعضواً أيضاً في مؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الثانية-^(١١) ليصبح من أشد أنصار عصابة الأمم. ما بين (١٩١٩-١٩٢٤م) عمل أستاذاً في جامعة لندن في تدريس التاريخ البيزنطي واللغة اليونانية، وكان مبعوثاً من الحكومة البريطانية لتسوية النزاع اليوناني التركي. وما بين (١٩٢٥-١٩٥٥م) عمل مديراً للدراسات في المعهد الملكي للشؤون الدولية (Royal Institute Of International Affairs)، وفي الوقت نفسه أستاذاً وباحثاً في التاريخ الدولي في جامعة لندن، حيث أشرف على إصدار الحولية للمعهد. وترافق ذلك مع عمله الضخم "تاريخ البشرية" حيث ساعدته في عمله بكلا المجالين فيرونیکا بولت (Veronica Boltz) التي تزوجها بعد طلاق زوجته الأولى التي اتهمته بالجنون، وبخاصة أنها بقيت وفيه لحبها الأول الذي راح ضحية في الحرب الأولى، في حين أنّ توينبي تهرب من واجب المشاركة

في الخدمة العسكرية. بقي توينبي خلال هذه الفترة على اتصال مع الدوائر السياسية حيث عاد سنة ١٩٤٣ للعمل في وزارة الخارجية كمدير لقسم البحوث^(١٢). كانت الحرب العالمية الثانية ومقدماتها منعطفاً آخر في حياة توينبي؛ فقد تسارعت مجريات الأحداث خلال عقد الثلاثينات من القرن العشرين على مستوى القارة العجوز، التي تمثلت بفشل عصبة الأمم في كبح جماح هتلر، وموسليني، الأمر الذي أفقد توينبي إيمانه بهذه المؤسسة لتحقيق السلم العالمي، ففي سنة ١٩٣٦م وفي لقائه مع هتلر لمدة ساعتين ونصف خرج من عنده وهو مقتنع برغبة الأخير بالسلام. لتكون بداية الحرب حرباً شاملة عليه وعلى استقراره النفسي، ابنه "توني" من زوجته الأولى ينتحر، أمه تموت، وزوجته تطلقه ليصبح أسير اليأس والاكْتئاب، وتصبح أخبار ساحات الحرب هي التي تقرر اعتقاداته وبقينه^(١٣)، فعندما يفقد الأمل بالحضارة ومستقبلها يتقد إيمانه "يجب حتماً أن نصلي... بروح خاشعة وقلب نادم..."^(١٤). وهو كما يذكر ألبان ويدجيري: "رؤيته للتاريخ ليست الرؤية المسيحية التقليدية إنها المسيحية الصحيحة، كما أفصح عنها... وهو يعبر عن نفسه في لحظات معينة كأنه يقبل بالمذهب المسيحي في التجسيد الإلهي... إن خالق الإنسان قد أظهر قدرته كحب مجد... الحب الذي قاد الله إلى أن يجعل من نفسه إنساناً لكي يصبح مخلص الإنسان..."^(١٥).

كانت الرحلة وسيلة للاطلاع، والمعاناة، والمشاهدة: اليونان، تركيا، الصين، الهند، روسيا، مصر وغيرها^(١٦)؛ ووسيلة للتحقق من نظرياته في التاريخ؛ فالمجتمعات البشرية لا يمكن فهمها بمعزل عن البيئة التي عاشت فيها، فخير وسيلة لمن يريد أن يعرف ما حوله من العالم أبطؤها^(١٧). فعندما زار اليابان أكد على أن اليابان التي عاشت لأكثر من سبعين، أو ثمانين عاماً تأخذ الأساليب الغربية في التكنولوجيا دون أن تأخذ النمط الغربي في الحياة، عادت بعد هزيمتها في الحرب العالمية لتأخذها، فهو يذكر: "بدا لي عندما زرت هذه البلاد في عام ١٩٥٦م أنهم قد انتهوا إلى ما انتهى إليه الأتراك في العشرينات من هذا القرن، إلى أنه إذا لم يكن بد من اتباع أسلوب الحياة الغربي، فلا مفر من اتباعه كاملاً"^(١٨).

نجد توينبي مبشراً بالفكر الليبرالي، ومهاجماً للفكر الاشتراكي، وهي سمة من نظري الفكر الليبرالي والمدافعين عنه خلال مرحلة الحرب الباردة، فنجده يؤكد على أن الشيوعية قد أفرطت في أهدافها باعتبارها عقيدة ثورية للبرولتاريا لسببين^(١٩):

١. نزولها من مكانتها كحلٍ ثوري للبشرية، وصيرورتها مجرد ضرب من القومية.

٢. تماثل الدول الشيوعية مع غيرها من الدول.

كان توينبي في تناوله للتاريخ مثاليّ النظرة، عالمي النزعة، وهذا ما يؤكدّه الدوري: "يتجه توينبي وجهة تقرب من أسلوب المثاليين في التاريخ، وهو يرى التاريخ يسير إلى غاية أخلاقية. ولم يكتف بتناول التاريخ كله بل تجاوزه إلى المستقبل. وحاول أن يشير إلى احتمالات الحضارة الغربية المقبلة، لقد تحول من الاجتماع إلى ما وراء الطبيعة"^(٢٠). فقد تأثر توينبي بالعديد من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين، فهو يسوق في المجلد العاشر من كتابه "دراسة التاريخ" أسماء الذين استفاد منهم وتأثر بهم: أفلاطون، ابن خلدون، شكسبير، بيرجسون وغيرهم الكثير^(٢١).

توينبي غزير الإنتاج، كتب في التاريخ، والحضارة، والدين، والسياسة، ولعل أبرز مؤلفاته: "دراسة للتاريخ" "A study of History"، وهو مؤلف من عشر أجزاء (١٩٣٤-١٩٥٤)، والتي قام سمومرفيل بتلخيصها في مجلدين في الطبعة الأولى، ومجلد واحد في الطبعة الثانية^(٢٢). أحدث الكتاب أصداء واسعة، وأضحى الكتاب الأكثر شهرة بين أواسط المؤرخين، وبيعت منه عشرات آلاف النسخ، ومئات الآلاف من ملخص سومرفيل، والعديد من الكتاب، والباحثين كتبوا حول الكتاب وألقيت محاضرات لا تحصى حوله، ونال توينبي شهرة عالمية خلال الخمسينات والستينات من القرن العشرين، عندما كان محاطاً بالرؤساء، ورؤساء الوزارات، والأمراء، فقد حاضر في أعرق الجامعات العالمية في مختلف أنحاء العالم، فقد كان الكتاب بحق متنوع بارتباطه بالعلوم الإنسانية، والاجتماعية وغزير بالأمثلة^(٢٣). ولا زال هذا العمل مصدر إلهام للباحثين المعاصرين، فهنتغتون في كتابه (صدام الحضارات) أعاد للواجهة مفهوم الحضارة، وان خالف فيه توينبي وغيره^(٢٤).

ثانياً. فلسفة التاريخ:

اتبع توينبي الأسلوب الاستقصائي في بحثه، ونظر إلى التاريخ بوصفه تاريخ البشرية، فهو يتعامل مع التاريخ ليس مجرد مراقب بل كإنسان شاء أن يسهم فيه. فالتاريخ - من وجهة نظره - هو أحد النوافذ التي لا تحصى التي تطل على الحقيقة^(٢٥)، ويذكر الدوري: "حاول مبدئياً أن يدرس تاريخ البشرية بصورة تجريبية ليتوصل إلى مبادئ وقوانين تصدق على التاريخ ككل، وهو يشير إلى أن طريقته استقرائية، وأنه يريد أن يجرب تناول الشؤون البشرية بالأسلوب العلمي..."^(٢٦). فالحادثة التاريخية في البدء كانت في استيقاظ الوعي عند الإنسان، التي بدأت بتحدر الإنسان سواء من الجنة أم من أسلاف سابقة، فالكائن البشري غير الواعي

لا يميز بين الخير والشر، والأخلاق ظهرت في المحيط الحيوي لأول مرة مع الوعي؛ والوعي والأخلاق مجتمعين يكونان نمطا للوجود، ومجال إمكاناته الخلقية بين القطبين الممثلين للسلوك الشيطاني والقداسة^(٢٧).

أوضح توينبي أن التاريخ البشري لا يسير بطريقة مستقيمة، فهو حصيلة الحضارات التي تزدهر وتتمو وتتحلل، هذه الحقيقة التي بنى توينبي تصوراتها ومفاهيمه عليها لم تكن من اكتشافه فهناك العديد ممن قالوا بها منهم شبنجلر، ولكن توينبي بعمله الكبير قد بنى جدله ببناء تاريخي كنماذج لطبيعة المجتمعات البشرية وسلوكها^(٢٨). فمتى بدأ تاريخ البشرية من وجهة نظر توينبي؟ يذكر أن عمر الجنس البشري هو مجايل لكل الأنواع الأخرى من الكائنات^(٢٩)؛ لكن هذه المرحلة السحيقة لا تصلح للدراسة، وكذلك المجتمع البشري بجمعه لا يصلح للدراسة التاريخية، لأن ذلك يؤدي إلى ضياع الملامح الحضارية للمجتمعات المختلفة^(٣٠)؛ فميدان الدراسة القابل للفهم بذاته هو يقينا مجتمع يضم عددا من الجماعات من النوع ذاته، فكل جزء فيها تشكل على وجه الخصوص القوى التي تتبعث عن السبب العام، الذي يؤثر في القوى ذاتها^(٣١).

كان توينبي ميالا لاعتبار نفسه مؤرخا، ونأى بنفسه عن الفلسفة حاله حال معاصريه الانجليز الذين وأن عبروا عن الفلسفة التأملية، والميتافيزيقيا، تركوا أثرا في فلسفة التاريخ، فعمله الضخم كان يسير فيه لغرض فلسفي، ونظرية قائمة على مكونات متعددة وان كانت لم تصل إلى مرحلة النسق الفلسفي المحكم؛ وإنما معرفة تاريخية في إطار فلسفي^(٣٢). فقد رأى توينبي أن الواقعة التاريخية كالفرد في ذاتها، فريدة في جوهرها، فالتاريخ لا يعيد نفسه؛ وهو لا يقبل المقارنة من بعض النواحي، إلا أنه من نواحٍ أخرى قد يكون عضوا في صنف ويمكن بالتالي المقارنة من بعض الأوجه^(٣٣). فكل جزئية من جزئيات التاريخ لا يمكن أن تؤخذ بمعزل عن جملة سياق التاريخ كله، فلا أحد يستطيع أن يقطع شريحة من التاريخ ليضعها تحت مجهره ويختبر جزئياتها، ويستنبط مغزاها، فليس هناك تاريخ أمة من الأمم يمكن أن يفهم بعيدا عن مجرى التاريخ وسياقه^(٣٤). وهكذا يمكن تحديد الملامح العامة لمنهجه التاريخي بما يلي^(٣٥):

١. التحقق من الوقائع وتسجيلها، وهو الأسلوب الفني للتاريخ.
٢. استخلاص قوانين عامة عن طريق دراسة مقارنة للوقائع المحققة، وهي الأسلوب الفني للعلم.

٣. إعادة تصوير الوقائع بطريقة فنية في مصنف خيالي، وهي الأسلوب الفني للدراما.

ثالثاً. التحدي والاستجابة ونشأة الحضارة:

ينطلق توينبي في تفسيره للحضارة من مبدأ رئيس وهو أن مادة التاريخ هي أقسام موحدة من البشرية وهي الميدان الدراسي القابل للفهم^(٣٦)، فقد بدأ توينبي معالجته التاريخية للحضارة بحصر عدد الوحدات الحضارية القابلة للفهم، وبذل جهداً من أجل صياغة نظريته، فجاء عمله عالمياً بدراسة كل الحضارات الفانية والقائمة منها. فتوينبي يؤكد أن الحضارة شاملة، ولا يشملها غيرها^(٣٧)، ويقرر أن هناك ست حضارات أصلية تطورت مباشرة عن المجتمعات البدائية، هي^(٣٨):

١. المصرية. ٢. السومرية. ٣. المينوية. ٤. الصينية. ٥. الماينوية. ٦. الإندونيسية.

وعن هذه المجتمعات "الحضارات" تفرعت خمس عشرة حضارة، ليصبح العدد إحدى وعشرين حضارة. وهذه المجتمعات لا يجمعها طابع مشترك سوى أنها كلها ميادين مفهومة الصلاحية للدرس؛ على اعتبار أن المجتمعات البدائية مواضع صالحة للدرس، ولكن ميادينها تختلف لأن عددها كبير يصل إلى حوالي (٦٥٠) مجتمعاً بدائياً؛ فضلاً على قصر آجالها وقلة عدد المنتسبين إليها^(٣٩). ومن هنا يرى توينبي أن وحدة الحضارة رأي غربي خاطئ، وقع فيه المؤرخون الغربيون بفعل ثلاثة أوهام هي: وهْمُ حب الذات، وهْمُ الشرق الراكد، وهْمُ التقدم بحركة تلتزم خطأ مستقيماً^(٤٠). تأثر توينبي هنا بدرجة كبيرة بإدوارد ماير في كتابه تاريخ العصور القديمة وتصنيف الحضارات، وكان قد سبقه الروسي نيقولاي دانيلفسكي بالقول بأن الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسات التاريخية، وأن سقوط الحضارة الغربية هو سقوط حتمي أمام الحضارة السلافية القادمة^(٤١).

استخدم توينبي مصطلح الحضارة مرادفاً للمجتمع، ولكنه لا يعرف ما يعني بالحضارة، فإذا كانت الحضارة مجتمع في طور النمو الحضاري، فإنه ارتكب مغالطة عند تقديمه المفهوم بالمفهوم، فقد عرف المفهوم بمفهوم لاحق ولم يعرف المفهوم اللاحق دون تحديد مساوي لمنطق اللغة، فالأصل أن يتساوى التعريف بالمعروف والعكس ولا يحمل داخله تناقضاً. فكان مثل هذا الأمر إشكالي وخاصة أن عدد المجتمعات كبير والمجتمع يكبر ويصغر، وتتغير خصائصه بين مرحلة تاريخية ومرحلة أخرى^(٤٢).

بدأ توينبي بطرح سؤاله البسيط: ماذا لو طبقنا أسلوب المقارنة هذا على تاريخ الغرب؟ ماذا سيكون هذا التاريخ لو قارناه بحضارات مثل الصين وحضارات الشرق الأوسط التي وصفها التراث الاستشراقي بأنها متفسخة ومتدهورة؟^(٤٣). فإذا عدنا إلى تحول المجتمعات البدائية إلى الحضارات وجدنا أنه تحول من الركود إلى الحركة الدافعة، حيث تتبعث الحضارة، وقد أطلق حكماء الصين على هذا التناوب "الين" وهو الركود و"اليانج" وهو الحركة الدافعة^(٤٤). فما الذي قاد الحياة البشرية إلى الحركة؟ وبصياغة أخرى للسؤال السابق: لماذا وكيف تنشأ الحضارة؟ لماذا وكيف تتقدم هذه الحضارة؟ لماذا وكيف تنهار هذه الحضارة؟^(٤٥). فنظرية الجنس (الصفات الموروثة في جماعة معينة) ونظرية البيئة (الأحوال الجغرافية والمناخية) لم يقدمتا الإجابة عن الأسئلة السابقة؛ فليست البيئة هي السبب الرئيس في التشكيل الحضاري وإن كانت بلا ريب أعظم العوامل تأثيراً، وكذلك نظرية الجنس فلا يمكن أن يكون جنساً أعلى هو الذي سبب حركة الانتقال من الين إلى اليانج^(٤٦).

يؤكد توينبي أن الحضارة ليست نتاج البيئة والعوامل البيولوجية "الجنس" كل حدة، بل هي نتاج التفاعل الجمعي ضمن نظرية التحدي والاستجابة^(٤٧). فالحضارات التي استجابت لتحدي ما هي التي استمرت وتطورت. فاستعراض استجابات الحضارات الستة الأصلية لتحدي البيئة: المصرية تحدي الجفاف، الصينية تحدي التباين الكبير في درجات الحرارة. أما الحضارتان الماينانية والإنديانية، فقد كان التحدي الغابة المدارية والمناخ القارس والتربة الشحيحة. وأخيراً المينوية فقد كانت استجابتها لتحدي مختلف هو تحدي البحر^(٤٨). يستند منهج البحث لدى توينبي إلى بعض المدلولات الفكرية العامة أو الأقسام الرئيسية التي تتدرج تحتها ألوان المعرفة، وأحد هذه المدلولات هو التبعية (Affiliation)، والظاهرة الأخرى هي الوراثة المستمدة من هذه التبعية (Apparentation) على النحو الذي نراه بين المجتمع الغربي والهيليني^(٤٩).

فعملية التفاعل الحضاري ليست عملية بسيطة ولا منعزلة، وهي ليست وحدة ولكنها علاقة التقاء، التي قد تكون تصادماً بين العوامل. فالدافع أو الباعث يأتي من الخارج، ووظيفة العامل أن يهيئ في الشيء الذي أدخل عليه حافزاً من النوع الذي يكفل استثارة أقوى التغيرات المبدعة، فلا يمكن التكهن بنتيجة التفاعل بين القوى والقوى التي تمثلها^(٥٠). فالتفاعل بين التحديات والاستجابات هو العامل الذي يعتد به في بدء الحضارات، فالحضارات الخمس عشرة نشأت استجابة لتحديات البيئة

البشرية، وليس لتحديات البيئة الجغرافية. فالحضارة المعتلة - الأصلية - تبدأ بالتفارق جراء عجز حيويتها بتحللها إلى أقلية مسيطرة تحكم حكما استبداديا، وبروليتاريا داخلية وخارجية تستجيب لهذا التحدي بوساطة إدراكها بأن لها نفسا خاصة فتعقد العزم على الخلاص^(٥١). فالسهولة غير المألوفة لا تعني التعافي ولا تقود إلى بناء الحضارات واستمرارها، فمع اختفاء الدافع "الحركة" تعود إلى حالة الركون والتلاشي^(٥٢). فالحضارات تتوالد في البيئات التي تتسم بالمشقة غير العادية وغير المألوفة، واستمرارية التوالد يكون بفعل حوافز: حافز الاستيطان في أرض جديدة، حافز البيئة، الصدمات الخارجية، الضغوط وحافز النقم الذي يعني استعاضة حاسة نتيجة فقدان حاسة أخرى كالأعمى الذي تقوى لديه حاسة السمع^(٥٣).

إذا كانت التحديات "الحوافز" في أعلى درجاتها، فهل تكون الاستجابة في أعلى درجاتها؟ هنا يجب بما يسميه "الوسط الذهبي"؛ فازدياد شدة التحدي حتى تصبح فوق المتوسط لا تعني زيادة فرص نجاح الاستجابة، على العكس تهبط الاستجابة وتخضع لقانون الأثر المتناقص، فهناك متوسط للشدة يكون عنده الحافز في أعلى درجاته، ويسمي ذلك بالدرجة المثلى على اعتبارها نقيضا للقوى^(٥٤). فالتحدي الأمثل لا يقتصر على استثارة الطرف المتحدي لينجز استجابة ناجمة بمفردها، ولكنه يشمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف المتحدي خطوة أبعد من استجابة ناجحة إلى مرحلة صراع جديد، ومن حالة الين إلى مرحلة اليانج. ولكي تتحول هذه الحركة إلى إيقاع متكرر لا بد من توافر انطلاق حيوي يحمل الطرف المتحدي من عملية التوازن إلى مرحلة زيادة رجحان الميزان، وهذا يتم من خلال ما يسميه "الوثبة" التي تظهر على هيئة تقرير المصير، أو الترابط الذاتي^(٥٥).

أخذ توينبي مفهومه "تقرير المصير" من أسلافه المثاليين البريطانيين، والذي كان مفهوما ثقافيا واجتماعيا أكثر منه مفهوما سياسيا، والذي كان يعني أن حضارة ما تحقق هوية فريدة واعية بذاتها تتمفصل بين أعضائها الذين يمقتون بدورهم شعورهم الكامل بالهوية والهدف، كمشاركين واعين بالكيان الكلي. وأخذ مفهوم الوثوب الحيوي من الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون (Henry Bergeson)، إلا أن وثوب بيرجسون لم يكن انعكاسا خارجيا لإرادة القوة، وإنما استبطان تأملي داخلي للنفس برفع الفعل إلى مستوى روحاني أعلى^(٥٦).

تتسم قاعدة الارتقاء بالتغيير المتعاقب، حيث يجد فعل التحدي والاستجابة بديلا لعملياته، والذي لا ينشأ من التحدي الخارجي بل من الداخل بالترابط الذاتي؛ والذي أطلق عليه "تقرير المصير"؛ فقد أخفق تاريخ التطور التكنولوجي، وتاريخ التوسع الجغرافي في تفسير الترابط الذاتي، وجمع الاثنين معا هو "التبسيط المتتالي"، فالتبسيط لا يصلح، ولا يفي وفاء مطلقا في وصف المتغيرات، بل يجب استخدام التحول الأثيري بنقل الطاقة من نوع من مجال الوجود، أو الفعل الأقل إلى ما هو أعلى منه^(٥٧).

المجتمع البشري نظام للعلاقات بين الكائنات البشرية، ولا تقتصر تلك الكائنات على كونها جزءا من كل، بل كونها موحدة في نطاق أرض مشتركة، وهذه الأرض هي ما ندعوه بالمجتمع الذي هو ميدان الفعل، إلا أن مصدر الفعل بأسره مرجعه الأفراد الذين يندفعون في سبيل التقدم، فهم أعظم من كونهم رجالا عاديين، بوسعهم إنجاز ما يظنه غيرهم معجزات، وهؤلاء هم العباقرة بالمعنى الحرفي، ويعتبر تجلي الأفراد بمثابة خلق نوع جديد قوامه فرد فذ، هو الذي يحطم الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية حيث يتتابع فعل الإبداع^(٥٨). هذا الفرد حي، حساس، متدين بمعنى التأمل الآشوري للتدين، رجل يناهض نفسه عن عالم العنف والبربرية، ينشد الأثيرية السماوية لنفسه والمجتمع، وهذا الفرد جزء من الأقلية المبدعة التي تتقدم لحمل الجماهير العادية من البشر معهم إلى التقدم، فواجب القائد هو أن يجعل زميله تابعا له، عن طريق النموذج، والإقناع لا عن طريق السلطة^(٥٩).

يتم فعل الإبداع بما يسميه الاعتزال والعودة، فالاعتزال هو في تحقيق الطاقات الإبداعية الداخلية، والعودة هي جوهر الحركة برمتها، كما أنها علتها النهائية ويلجأ الأفراد المبدعون إلى كسب أغلبية أفراد المجتمع العاطلين عن الإبداع، إما عن طريق الاستثارة أو عن طريق المحاكاة، وهكذا يسير المجتمع في طريق الارتقاء. ويؤدي تعاقب التحديات الواحد بعد الآخر إلى ظهور تمايز داخل نطاق المجتمع، وكلما طال أمد السلسلة زادت قوة هذا التمايز وضوحا^(٦٠).

رابعا: انهيار الحضارة والدولة العالمية.

مشكلة انهيار الحضارة أشد وضوحا من مشكلة ارتقائها، فالحضارات الباقية هي: حضارة المجتمع الغربي، حضارة المجتمع الإسلامي، حضارة المجتمع الهندي، الحضارة في الشرق الأقصى (الصين واليابان) وحضارة المجتمع المسيحي الشرقي - روسيا -^(٦١). ثم الحضارات المتعطلة للبولونزيين والاسكيمو والبدو التي

هي في سكرة الموت، أما الحضارات الأولى فإنها جميعا بدرجات مختلفة تحت تهديد الإبادة أو الاندماج في مجتمع الحضارة الغربية^(٦٢). وتتمثل طليعة العلامات الظاهرة للتحلل في حصول الحضارة المحتملة على وسيلة تسهل عملية انحلالها، وسيلة مدارها خضوعها لتوحيد سياسي إجباري في دولة عالمية، وهذا يوحي بأن الحضارات غير الغربية قد تصدعت داخليا قبل أن تتحلل بفعل هجوم الحضارة الغربية عليها. على أساس أن انهيار حضارة من الحضارات يسبق فعلا عملية اقتحام حضارة أخرى لها، فالدولة العالمية لا تعتبر أولى المراحل ولا تعتبر المرحلة الأخيرة؛ إذ يتلوها ما اصطلح عليه توينبي "الفرغ"، ويسبقها ما دعاه بعصر الاضطرابات. فطبيعة الانهيار يمكن إيجازه بثلاث نقاط^(٦٣):

١. قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية.

٢. عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها الإبداعية.

٣. فقدان الوحدة الاجتماعية.

بعد قراءة توينبي لكتاب شبنجلر "أفول الغرب" الذي أكد فيه أن مصير الحضارة الغربية فيما يتعلق بالانهيار والتحلل هو نفس المصير، وأن الحضارة الغربية لا تختلف في هذا الجانب عن باقي الحضارات^(٦٤). تساءل توينبي فيما إذا كان شبنجلر قد قدم كل الإجابات، ولذلك جاء عمله الكبير "دراسة للتاريخ" تقييم لمكانة الحضارة الغربية في تاريخ العالم^(٦٥). فقد شعر في مرحلة معينة من حياته ببغض للحضارة الغربية فقد كان لديه قناعة قائمة على شعوره "... أن العالم القديم هو المسكن الطبيعي للروح الإنسانية، وأن ما جاء بعده شيء مؤسف..."^(٦٦). فقد اتهم الغرب بأنه المعتدي الأول، وأنه لم يقدم للبشر سوى الويلات والحروب^(٦٧). وهو بهذا يخالف نمطية المؤرخين الأوروبيين الذين عدوا الحضارة الأوروبية مركز صناعة الأحداث التاريخية^(٦٨). كان توينبي في دراسته التاريخ متأثرا بما قاله شبنجلر؛ وحاول أن يجد بديلا لانهيار الغرب، بتجديد المجتمع كمجتمع قيم مشتركة أو ما كان يطلق عليه بلغة التنوير "القيم المهيبة" التسامح والتعاطف والاهتمام الإنساني والحلول الوسط المعقولة^(٦٩).

رفض توينبي جميع النظريات والتفسيرات لانهيار الحضارات، وخاصة تفسير شبنجلر البيولوجي الذي رأى في الحضارات نموجا يتكرر على غرار دورة الحياة للكائنات الحية، فهو يفحصها بمدلول توالي الفصول الأربعة، فكل حضارة لها ربعها المتمثل في عصر البطولة المبكر: الحياة زراعية ريفية إقطاعية. ويليه

صيفها: تظهر المدن والتنظيم السياسي؛ وفي الوقت نفسه ثورة ضد الميثولوجيا ويظهر فيه ذكاء علمي من الوعي. خريف الحضارة: مدن نامية وتجارة وملكيات، وفيه انحلال الدين وفقر الحياة الداخلية، ثم تتحدر الحضارة إلى شتاء: ذبول الإبداع الفني والزمني وموت الدين وظهور أشكال المادية المفرطة. والدورة الحضارية تعيد نفسها بكل تفاصيلها^(٧٠).

وفي استعراضه لهذه النظريات الحتمية يسلم بأن ثمة عامل تكرر في حركة جميع القوى التي تحوكم نسيج التاريخ البشري، غير أن هذا المكوك الذي يسير إلى الأمام عبر نسيج الزمن ذهابا وجيئة بحركة متصلة يبرز إلى الوجود خلال الزمن ثوبًا مزركشًا يحتوي على صورة تتكامل وليست مجرد تكرر لانتهائي لنفس النمط، فالحركة تسير قدما ولكن ليس عملية إلى ما لا نهاية^(٧١). انهيار الحضارة ليس من فعل القضاء والقدر، وعادات عابثة لقوانين الطبيعة أو فقدان السيطرة على البيئة الطبيعية كانت أم بشرية، أو انحطاط الأساليب الصناعية، وإنما هو بفقدان المصير "فقدان الترابط الذاتي" والذي يبدأ على شكل تعديلات وانحرافات وثورات" وضغوط سماها: ضغوط الديمقراطية، ضغط الصناعة على الحرب وعلى الملكية الخاصة وضغط الحضارة على نزعة المحاكاة^(٧٢).

وفي هذا يقول هيرمان: "كان توينبي يرى الاضمحلال الانهيار قادم... عندما تحل روح الميكانيكية محل قوة تقرير المصير... المجتمع الصناعي يمكّن الإنسان من قهر الطبيعة بشكل حاسم بفضل ما لديه من تكنولوجيا... ولكن الإنسان لم يفعل شيئاً سوى أنه استبدل سيّداً بآخر... التصنيع شوّه الملكية ليصبح لا مساواة بشعة مما خلق أمتين واحدة عظيمة الثراء والأخرى عظيمة الفقر... كما صنع تكنولوجيا الموت الجماعي الجديدة... الدول الضيقة الأفق أصبحت ديمقراطيات قومية..."^(٧٣).

عملية النمو الحضاري تشبه اللولب الصاعد، التحدي يؤدي إلى استجابة ونجاح، والاستجابة والنجاح بدورهما يضعان تحديا جديدا. الانحلال يشبه لولبا آخر ولكنه بالاتجاه المعاكس إلى الأسفل، حيث تقعد المؤسسات القدرة على الاستجابة للأزمات، فتنهار ويؤدي ذلك إلى أزمات جديدة^(٧٤). فهل التحلل مشكلة جديدة تقوم بذاتها؟ هل يمكننا التسليم جدلا على سبيل الفرض أنه نتيجة حتمية لطبيعة الانهيار؟^(٧٥). فالمجتمعات التي فشلت في الصمود أمام التحديات سماها

"الحضارات المتحجرة المتعطلة (Arrested Civilizations) قد دخلت في مرحلة التجرد الطويل^(٧٦).

تصل الحضارة بعد الانهيار إلى آخر مرحلة من مراحلها وهي التحلل^(٧٧)، وتظهر ملامح هذا التحلل في ما يسميه "الانشقاق ورجعة المولد"، وهنا يستعين بالتفسير الماركسي للصراع الطبقي فهو يقول: "بغض النظر عما يقوله كارل ماركس بالنسبة لهذه الفكرة فإنها تخطط بأحكام السبيل الحقيقي الذي تنتزع الحرب الطبقة إلى سلوكه، أو يتجه إليه الانشقاق الأفقي في مجتمع ما، " فالانشقاق هو حصيلة حركتين سلبيتين، يعتبر الانفصال الشرير مصدرهما، تتمثل الأولى بمحاولة الأقلية المسيطرة المحافظة على المركز الممتاز الذي باتت لا تستحقه، والثانية: قيام البروليتاريا (خارجية وداخلية) بدافع إلتياء، والخوف، والكراهية لمواجهة القوة بالقوة، وهذا ينتهي بأفعال إيجابية: الدولة العالمية، نظام الدين العالمي، وعصابات البرابرة المتوحشين^(٧٨). وهذا الانشقاق يصل إلى الروح، عبر ما يسميه بالتراخي والشرود التي هي نتيجة لرذيلة الجبن، وفضيلة الشجاعة، وهما بديل المحاكاة والشعور بالانسياق، والخطيئة وهما بالضرورة بديل الارتقاء الحيوي؛ أي الشعور بالاتحاد والابتدال للذات هما بديل أناقة الأسلوب^(٧٩).

مع حالة التحلل ونشوء الدين العالمي، والدولة العالمية، والانشقاقات على كافة المستويات تصبح النخبة الحاكمة في النهاية الطبقة التي تجمع التفسخ الأخلاقي، والإباحية، والانحراف الجنسي، واللغة تتدهور وتصبح نابية، والدين يصبح مذاهب، وسحرا سريا^(٨٠)، وهذا ما يسميه الانشقاق ما بين السلفية التي تحاول إرجاع التاريخ إلى الخلف، والمستقبلية التي تسعى إلى الأمام بطريق قصير^(٨١). وفي هذه المرحلة (مرحلة التغير الأخير من الارتقاء إلى الانحلال) لا يزول الإبداع إذ يستمر ظهور الشخصيات المبدعة وتتواصل زعامتها بفضل طاقتها الإبداعية بما يسميه المخلص المبدع والفيلسوف والملك والإله المتجسد في إنسان، ليخلص أخيرا إلى القانون التالي: الكسرة - النهضة - الكسرة - النهضة - الكسرة - الكسرة. ويجمع المجتمع المهدم قوته في محاولة أخيرة على شفا الانهيار ويبدو وكأنه استعاد قوته، فيشهد عودة التحدي والاستجابة ويكون هذا في الدولة العالمية وحين تنهار هذه الدولة تموت الحضارة^(٨٢).

اعتقد توينبي أن الدولة البابوية في العصور الوسطى تمثل أوج وقمة الحضارة الغربية، مشككا بالقوى الأوروبية بالعصور الحديثة، فالانحلال ليس حتميا وإنما

يعتمد بدرجة كبيرة على القدرة على تجنب المصير المحتوم وتصحيح المسار من خلال عودة الغرب الى القيم المسيحية، فالشيوعية لم تظهر إلا نتاج انحراف الحضارة الغربية، لذا على الغرب أن يتحد من جديد للدفاع عن حدوده، فقد كان يأمل بأن تتبنى العديد من شعوب العالم قيم الحضارة الغربية وتتحالف معها لمواجهة الشيوعية، وخاصة أنه كان يتحدث في تلك المرحلة عن سياسة الاحلاف والتكتلات الدولية مع بدايات الحرب الباردة^(٨٣).

يتحدث توينبي عن الحضارة الرائدة والقائدة في صورتها العالمية لتدمج وتصهر جميع الحضارات بداخلها، وترتكز حكومة المجتمع الجديد على التعاون العالمي، ويفترض تطورها لتصبح تاريخا بشريا كاملا^(٨٤). فقد كان لدى توينبي شكوك ومخاوف كبيرة من نهاية الحضارة الغربية التي تتطلب لإنقاذها أقصى الجهود الأخلاقية والروحية والمادية، فهو يخشى أن يضع الموت يديه الباردين على الحضارة الغربية، ولكنه يؤكد على قبس الطاقة " المبدعة الإلهية التي ما تزال حية فينا^(٨٥)". فهو يقول بدا الضوء الفاسد لموقفنا الحالي، ولكن المخلص ظهر في شعوب أخرى، إلا أنه يخلف وراءه سلطة إكليريكية عالمية حركة روحانية تتولى المثل العليا الإمبراطورية، السلام والوئام العالميين. يغيب التمييز بين الشعوب تحت سيطرتها والطموح إلى البقاء والخلود، وتقوم بتحريرها بشكل لاهوتي، هذه السلطة الإكليريكية العالمية تجتذب وتجمع البروليتاريا الداخلية التي تتسرب - دون وعي - القيم الروحية، فتجعل منها كتلة روحية واحدة وهي القيم نفسها، فالسلطة الإكليريكية العالمية تبقى فيها الهيبة الجوهرية من الحضارات العليا السابقة، فالمسيحية أضاءت العصور المظلمة وقام الإسلام بتحضير البدو في الصحراء العربية. وبالمثل، فإن إرث الغرب الحديث للشعوب لن يكون التكنولوجيا المادية، وإنما سيكون الإرث تلك النزعة الإنسانية ذات الطابع الروحي^(٨٦).

وحده الدين قادر على جلب الخلاص، وحده يكون الضمانة والكفالة لقيام الدولة العالمية، ولكن ما هو هذا الدين القادر على تحقيق ذلك؟. اعتقد توينبي قبل الحرب العالمية الثانية يختلف عما بعدها، فقد كانت الكاثوليكية هي الخلاص، ولكنه اعتقد لاحقا أن المسيحية، الإسلام، الهندوسية، البوذية هي الأديان العليا^(٨٧)، هذه الأديان تخلق البروليتاريا دينا خاصا بها التي تنتشر جغرافيا بفعل تطور وسائل النقل الحديث وتختفي القيود التي تحد من انتقال الناس في الدولة العالمية - كأنه يشهد التطور الحالي في ظل الثورات اللامحدودة في وسائل الاتصال واتجاه العالم نحو

زوال الحواجز بين الثقافات- هذه الحركة تصير ببطء كنيسة عالمية كمنظمة توجه وتنظم الطاقات البشرية مفتاح نجاحها في أغلب الحالات استجابة سلمية لحالات الانحلال التي تأخذ شكل المثل الأخلاقية المعتمدة على مبادئ الحب الأخوي والتغلب على الانانية الفردية^(٨٨).

تختار الحركات الاجتماعية الأخرى الاستجابة العنيفة عوضاً عن الاستجابة السلمية، الأمر الذي يؤدي الى صراع عسكري وتنتشر روح الاكراه من أجل الاستقرار السياسي، فالكنيسة حاضنة تغلف وتحمل القيم الأساسية من حضارة الى أخرى وتعطيها شكلاً آخر عندما تتحل الحضارة تحافظ الكنيسة على البذور القيمة في فترة غياب السلطة والعصيان الخطير، فما بين حلول جنس بشري من نفس النوع أو نوع آخر، تكون الكنيسة بمثابة الرحم حاضن ما بين الشرنقة والفراشة، فالحضارة حزام ناقل للأديان أي وسيلة من أجل دين أعلى^(٨٩).

خلاصة:

توينبي كان ظاهرة بحد ذاته، فقد رأينا المركز الذي ناله والمناصب التي تقلدها والمؤلفات الضخمة؛ وقد عُدّ من كبار المؤرخين في القرن العشرين، الذين سعوا إلى وضع إطار عام للتاريخ، برسم قوانين محددة يستطيع تطبيقها على مجرى الأحداث التاريخية، ولعل نظرية التحدي والاستجابة ونظرية انحلال الحضارة بتعاقب معين، تعتبر من أهم النظريات الحديثة التي أثارت جدلاً واسعاً ما بين المؤرخين. فقد كان توينبي ذا غائية واضحة من كتابة التاريخ، فنجده مبشراً بالفكر الليبرالي الملتزم بقيم أخلاقية عالية، وهدفه الأساسي عدم وصول الحضارة الغربية إلى ما وصلت إليه الحضارات الأخرى من انحلال وانهيار، لذا سيذكره الناس على الدوام كونه مؤرخاً عظيماً عاش حروب القرن العشرين، وأن نظريته لا زالت قائمة في تفسير الأحداث العالمية، والسياسات الدولية.

ما يؤخذ على توينبي بشأن نظريته في التاريخ أن معرفته بالحضارات الست والعشرين، التي تناولها كانت غير متساوية، فقد اعتمد على مصادر واحدة هي المصادر المكتوبة، فتوينبي يفصل بين الكيان الفردي، وبين أي شيء آخر، بفواصل دقيقة يفرق بين ما ينطوي عليه في الداخل، وبين ما هو خارج عنه. معنى ذلك أن لا صلة تربط بين داخل المجتمع وخارجه، وهذا نوع الفردية الذي يصدق على شيء مادي. لقد بنى توينبي فكرته في التاريخ استناداً إلى فلسفة طبيعية بحتة، ينظر إلى حياة المجتمع على أنها حياة طبيعية وليست حياة عقلية، على

أنها شيء يقوم على أسس بيولوجية بحتة، ولذلك فالتاريخ قد تحول إلى دراسة من دراسات الكون المادي والماضي، بدلا أن يعيش في الحاضر كما هو الحال في التاريخ، صوره على أنه ماض في حيز العدم. اعتبر توينبي أن الدين وحده يمكن أن ينقذ الحضارة الغربية، وأنها في طريقها إلى الهاوية، ما لم ترجع إلى الله. يعيش العالم حاليا في الدولة العالمية ويكاد تكون ملامح الدين العالمي بالوقت الحاضر مرسومة حول التأكيد على القيم الإنسانية، وشعارات حقوق الإنسان، والبيئة، وهو ما استعرضه توينبي في دراساته وكأنه تتبأ بهذا الانسياب، والانفتاح العالمي غير المسبوق. وما زال أصحاب الحضارة السائدة بالعالم يدعون أنهم القادرين على السير بالعالم نحو الأفضل، في ظل نظام عالمي تسوده ما يمكن أن نسميه القيم الأمريكية سواء قبلنا فيها أم اعترضنا عليها، ليتم عولمة الإرهاب والتطرف بالرغم من أن أغلب ضحايا الإرهاب هم من المنطقة العربية، ليعاد علينا من جديد سؤال توينبي حول تحلل، وانهيار الحضارة، ومظاهر ذلك نجده في عالمنا العربي بكل وضوح.

الحواشي:

(1) The new Encyclopedia Britannica, (UK: Encyclopedia Britannica, Inc, 1985). Vol.28, p. 779.

(٢) نتيجة تشابه الأسماء حدث خلط بين الاقتصادي توينبي والمؤرخ توينبي؛ فقد عاش الأول (١٨٥٢-١٨٨٣)، وهو صاحب كتاب الثورة الصناعية، عُرف بنزعتة المثالية وحلمه بمجتمع متجانس قائم على النزعة الفردية، والأخلاق الفردية.

(3) Arnold Toynbee, Experience, (Oxford: Oxford University Press, 1969). p.207; صدقي عبد الله خطاب، أرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، ص 779-88؛ Britannica, Op.Cit, p.779-88؛ المجلد الخامس، العدد الأول ١٩٧٤، ص ٢٩٢؛ نفين جمعة علم الدين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١). ص ١٩.

(4) Arnold Toynbee, Study of History, 12Vol, (London: Oxford University press ، 1974) Vol.VII. p. viii-ix; Britannica, Op.Cit,p.779.

(٥) آرثر هيرمان، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، تر: طلعت الشايب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠) ص ٣٢٨-٣٢٩.

(6)Toynbee, Study, Op.Cit. Vol.VII. p.viii-ix ;Britannica, Op.Cit,p.779

(٧) توينبي عند: هيرمان، فكرة الاضمحلال، ص ٣٢٨.

(٨) هيرمان، فكرة الاضمحلال، ص ٣٢٣-٣٢٨؛ لمعي المطيعي، سلسلة مذاهب وشخصيات، عدد: ١٤٨، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٧). ص ١٢٧-١٢٩.

(٩) هيرمان، فكرة الاضمحلال، ص ٣١٤-٣١٥.

(10)Toynbee, Experiences, Op.Cit, p.207 مجلة عالم الفكر، ص ٣٢٨؛

(١١) أرنولد توينبي، محاضرات ألقاها في مصر سنة ١٩٦٤م، تر فؤاد زكريا، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤). ص ٣.

- (12) Toynbee, Study, Op.Cit. Vol. VII. p. viii-ix; Britannica, Op.Cit. p779;
المطيعي، سلسلة، ص١٢٧.
- (13) محمود زايد، سيرة الفكر التاريخي عند توينبي، بحوث مهرجان المؤرخ توينبي: تحرير جواد علي، (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٩). ص٦٩.
- (14) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج٢، تر: فؤاد محمد شبل، (القاهرة: لجنة التأليف للنشر، ١٩٦١). ج٢، ص٤٧٠.
- (15) البان.ج.ويدرجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفيوش إلى توينبي. تر: ذوقان قرقوط، ط١، (بيروت: دار القلم، ١٩٧٢). ص٣٢٩.
- (16) امين شلبي، نظرات في ارنولد توينبي، (القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠) ص٤٠. توينبي، محاضرات، ص٣.
- (17) سومرفيل، مختصر دراسة التاريخ، ج٢، ص١٥٢-١٥٥.
- (18) توينبي، محاضرات، ص٣٨.
- (19) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج٢، ص١٩٨.
- (20) عبد العزيز الدوري، "فلسفة التاريخ: عرض تاريخي"، مجلة عالم الفكر، الكويت، أغسطس، ١٩٧١م. ص٨٠.
- (21) Toynbee, Study, Vol.X. p.213
- (22) Toynbee, Study, Vol.I-X; D. Somervell, A Study of History: Abridgement of Vols I-X in one volume, with a new preface by Toynbee and new tables (Oxford: Oxford University Press, 1960).
- (23) Ataöv, Türkkaya, History and Prof: Toynbee A Critique of Western Interpretation, Turkish Year Book, Vol: IX, 1968, p. 40-63. p.42-43; Krishan Kumar, The Return of Civilization-and F. Arnold Toynbee? Comparative Studies in Society and History, Warsaw, Volume 56, Issue 4 October 2014, p. 815-843, p.815,832.
- (24) صامويل هنتغتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، ط٢، (الولايات المتحدة: دار سطور للنشر والتوزيع، ١٩٩٩).
- (25) ويدجيري، المذاهب، ص٣٢٣.
- (26) الدوري، فلسفة التاريخ، ص٧٨.
- (27) ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، تر: نقولا زيادة، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤) ص٤٢-٤٣.
- (28) Türkkaya, History and Prof, Op.Cit, p.43.
- (29) توينبي، تاريخ البشرية، ص٤٣.
- (30) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص٢٥.
- (31) المصدر نفسه، ج١، ص٧-٨.
- (32) غايتان بيكون، آفاق الفكر المعاصر، ط١، (بيروت: دار عويدات للنشر والتوزيع، ١٩٦٥). ص٣٤٩.
- (33) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص٦٩.
- (34) محيي الدين إسماعيل، توينبي: منهج التاريخ وفلسفة التاريخ (بغداد: وزارة الأعلام، ١٩٧٧). ص٣٤؛ سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ص٧-٨.
- (35) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص٧٢.
- (36) الدوري، فلسفة التاريخ، ص٧٨؛ نفين، فلسفة التاريخ، ص١٠٥.
- (37) هنتغتون، صدام الحضارات، ص٧٠.
- (38) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص٥٨-٥٩، نفين، فلسفة التاريخ، ص١٠٥؛

Patrice Gardiner, Theories of History, (Oxford: Oxford University Press, 1959). p.20; Toynbee, Study, Vol II, p34.

- (٣٩) سومرفيل، مختصر دراسة التاريخ، ج ١، ص ٥٩.
- (٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦١-٦٤.
- (٤١) حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون: دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، ط ٢، (القاهرة: دار الرشاد، ٢٠٠١). ص ١٩٣-١٩٧؛ هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٣٣.
- (42) Krishan Kumar, The Return of Civilization-and F. Arnold Toynbee? Comparative Studies in Society and History Volume 56, Issue 4 October 2014, p. 815-843, p.817-818.
- (٤٣) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٣٣.
- (٤٤) سومرفيل، مختصر دراسة التاريخ، ج ١، ص ٨٦.
- (٤٥) ر.ج. كولنجود، فكرة التاريخ، تر: محمد بكير خليل، ط ١، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة ١٩٦١). ص ٢٨٩.
- (٤٦) سومرفيل، مختصر دراسة التاريخ، ج ١، ص ٩٥.
- (٤٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٦.
- (٤٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٦-١٢٧.
- (٤٩) كولنجود، فكرة التاريخ، ص ٢٨٧.
- (٥٠) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ١٠٦.
- (٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٤-١٢٨.
- (٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٢.
- (٥٣) لمزيد من المعلومات عن الحوافز انظر: المصدر نفسه، ص ١٦٥-٢٣٢.
- (٥٤) المصدر نفسه، ص ٣١٣-٣١٧. Gardiner, Theories Of History, Op.Cit, p.204.
- (٥٥) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٣١٧.
- (٥٦) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٣٥.
- (٥٧) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٣٣١-٣٣٣.
- (٥٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٣-٣٥٧.
- (٥٩) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٣٦-٣٣٨.
- (٦٠) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٣٦٣-٣٦٤، ص ٤٠٤.
- (٦١) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٤٠٩؛ الدوري، فلسفة التاريخ، ص ٧٨.
- (٦٢) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٤١٠.
- (63) Toynbee, Study Of History, Vol. IV p. 6; سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٤١٣.
- (٦٤) أحمد صبحي، في فلسفة التاريخ، ط ١ (الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، ١٩٨٥). ص ٢٩٣.
- (٦٥) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣١٣.
- (٦٦) رسالة أرنولد توينبي إلى جلبرت موراي ١٩٣٠م عند: هيرمان، الاضمحلال، ص ٣١٣.
- (67) Arnold. Toynbee, Civilization on Trial, (New York: Meridian Book, 1959). p, 137.
- (٦٨) شلبي، نظرات في ارنولد توينبي، ص ١٠٦.
- (٦٩) المرجع نفسه، ص ٣١٥.
- (٧٠) الدوري، فلسفة التاريخ، ص ٧٧.
- (٧١) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ص ٤٢٦-٤٢٧.

- (٧٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١-١٨.
- (٧٣) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٤٠.
- (٧٤) المرجع نفسه، ص ٣٣٩.
- (٧٥) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ٢، ص ١٤٣.
- (76) Toynbee, Study of History, Vol. VII, p.216.
- (٧٧) منح خوري، التاريخ الحضاري عند توينبي، ط ١. (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠) ص ٢١١.
- (٧٨) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ٢، ص ١٥٧-١٦٠.
- (٧٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.
- (٨٠) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٤١.
- (٨١) سومرفيل، مختصر الدراسة للتاريخ، ج ٢، ص ٤٦٠-٤٦١.
- (٨٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٦.
- (83) Arnold Toynbee, The world and the West. (London: Oxford University Press,1953).p.3-14.
- (٨٤) شلبي، نظرات في ارنولد توينبي، ص ٢٨.
- (٨٥) سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ج ٢، ص ٤١٧؛ محيي الدين، توينبي، ص ٩٤.
- (٨٦) هيرمان، الاضمحلال، ص ٣٤١-٣٤٢.
- (87) Türkaya, History and Prof, Op.Cit,p.54-56.
- (88) Grzegorz Lewicki, Return of Toynbee: European Union as Universal Sate, Muslims as internal proletariat. Warsaw, Sensus Historiae, Vol. 28, No. 3, 2017.p.69-95, p.74.
- (89) Lewicki, Return of Toynbee,p.75; Toynbee, Study of History, Vol,II,p.97.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

- إسماعيل، محيي الدين، توينبي، منهج التاريخ وفلسفة التاريخ (بغداد: وزارة الأعلام، ١٩٧٧).
- البان.ج. ويدرجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفيوش إلى توينبي، تر: ذوقان قرقوط، ط ١، (بيروت: دار القلم، ١٩٧٢).
- بيكون، غايتان، آفاق الفكر المعاصر، ط ١، (بيروت: دار عويدات للنشر والتوزيع، ١٩٦٥).
- توينبي، أرنولد،
- تاريخ البشرية، تر: نقولا زيادة، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤).
- محاضرات ألقاها في مصر سنة ١٩٦٤) تر فؤاد زكريا، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤).
- خطاب، صدقي عبد الله، أرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس، العدد الأول، ص ٢٩٢.

- الدوري، عبد العزيز، "فلسفة التاريخ: عرض تاريخي"، مجلة عالم الفكر، الكويت، أغسطس، ١٩٧١م.
- زايد، محمود، سيرة الفكر التاريخي عند توينبي، بحوث مهرجان المؤرخ توينبي: تحرير جواد علي، (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٩).
- سومرفيل، مختصر دراسة للتاريخ، ٢ ج، تر: فؤاد محمد شبل. (القاهرة: لجنة التأليف للنشر، ١٩٦١).
- شلبي، امين، نظرات في ارنولد توينبي، (القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠).
- صبحي، أحمد، في فلسفة التاريخ، ط ١ (الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، ١٩٨٥).
- علم الدين، نفين جمعة، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١).
- كولنجود، ر.ج.، فكرة التاريخ، تر: محمد بكير خليل، ط ١، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦١).
- منح خوري، التاريخ الحضاري عند توينبي، ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠).
- مؤنس، حسين، التاريخ والمؤرخون: دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، ط ٢، (القاهرة: دار الرشاد، ٢٠٠١).
- هيرمان، آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، تر: طلعت الشايب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠).
- هنتغتون، صامويل، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، ط ٢، (الولايات المتحدة: دار سطور للنشر والتوزيع، ١٩٩٩).

قائمة المصادر والمرجع باللغة الانجليزية:

- The new Encyclopedia Britannica, (UK: Encyclopedia Britannica, Inc, 1985).
- Gardiner, Patrice, Theories of History, (Oxford: Oxford University Press ,1959).
- Kumar, Krishan, The Return of Civilization-and F. Arnold Toynbee? Comparative Studies in Society and History Volume 56, Issue 4 October 2014.
- Lewicki, Grzegorz, Return of Toynbee: European Union as Universal Sate, Muslims as internal proletariat. Warsaw, Sensus Historiae, Vol. 28, No. 3,2017.
- Somervell, A Study of History: Abridgement of Vols I-X in one volume, with a new preface by Toynbee and new tables (Oxford: Oxford University Press, 1960).

-
- Toynbee, Arnold,
 - Experience, (Oxford: Oxford University Press, 1969).
 - Civilization on Trial, (New York: Meridian Book, 1959).
 - Study of History 12Vol, (London: Oxford University press, 1974).
 - Arnold Toynbee, The world and the West. (London: Oxford University Press,1953).
 - Türkaya, Ataöv, History and Prof: Toynbee A Critique of Western Interpretation, Turkish Year Book, Vol: IX, 1968.

From Challenge and Response to the Global State: A Reading in the Philosophy of Arnold Toynbee

Abstract:

Toynbee's philosophy of civilization was an attempt to draw general lines for the emergence of civilization and its collapse, considering challenge and response as the criterion for this emergence and collapse. Based on this theory, Toynbee deduced his futuristic theory about the global state and the global religion based on common human values. The same questions raised by Toynbee emerge in his work again. The interest in Toynbee's theory reemerges from last century until now in the context of the communication and civilizational conflict, and the tendency of the world to remove all barriers due to the new technological, political and economic revolutions.

The basic premise of this study is that Toynbee extrapolated history and questioned it in the form of a futuristic philosophy in which his experience, work and teaching led him to play a role in this extrapolation. The study covers the following topics:

1. The intellectual formation of Toynbee.
2. The philosophy of history.
3. Challenge, response and the emergence of civilization.
4. Collapse of civilization and the global state.

Keywords: philosophy of history, civilization, challenge and response, global state.